المختلفة المتباينة مزجا ربما لم يعهده تاريخ الفلسفة ولا تاريخ التصوف فى أى أمة أخرى، وخرجوا بعد كل ذلك بمذاهب فى التصوف الفلسفى كان لها أثرها ولها خطرها فى تطور الفلسفة والتصوف فى القرون الوسطى والحديثة ، لا سيما بعد أن بلغ التصوف الذروة الفلسفية فى مذاهب أمثال محيى الدين بن عربى ، وشهاب الدين عمر السهروردى المقتول ، وعبد الحق بن سبعين الأندلسى ، وعبد الكريم الجيلى ، والصدر القونوى ، وجلال الدين الرومى ، وعبد الرحمن جامى وغيرهم

من هـذا يتبين أن كل نظرية فى نشأة التصوف الاسلامى قائمة على فكرة إرجاعه إلى أصل واحد مقضى عليها بالفشل . إذ قد رأيت النواحى العديدة الاسلامية وغير الاسلامية التى استمد منها التصوف مادته .

ولكن بعض المستشرقين إن لم يكن أكثرهم لم يروا حرجا فى القول بأن التصوف الاسلامى قائم على أصل واحد أو مستمد من جهة واحدة : فذهب الأستاذ فون كريمر ودُوزى إلى أن أصل التصوف الاسلامى هندى أساسه مذهب الفيدانتا ؛ وذهب الاستاذ « مركس » إلى أن أصله الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ؛ وقال الأستاذ برون إنه فارسى فى جوهره وإنه نتيجة لرد فعل أحدثه ثوران العقل الآدمى ضد الدين الاسلامى الفاتح . وربما كان الأستاذ نيكلسون أكثر اعتدالا وأوسع نظرا من هؤلاء جميعاً ، إذ يعترف أن التصوف الاسلامي ظاهرة معقدة غاية فى التعقيد ، وأن أصوله متشعبة كثيرة لم يكشف البحث الحديث إلا عن بعضها فقط

والحق أن كل نظرية من هذه النظريات إنما تعبر عن جزء من الحقيقة لا الحقيقة برمتها ، وأن الذى دعا هؤلاء المستشرقين إليها قصرهم النظر على ناحية خاصة من التصوف دون النواحى الأخرى وملاحظتهم لبعض جهات الشبه بين التصوف الاسلامى والأحوال التى قالوا إنه مستمد منها ناسين أو متناسين الثقافة الاسلامية والعقلية الاسلامية التى هضمت كل ما وصل إليها من عناصر الفلسفة والتصوف الأخرى ، واستخلصت لنفسها فلسفة وتصوفا جديرين بالبقاء وجديرين بأن يطلق عليهما اسم الفلسفة الاسلامية والتصوف الاسلامى

أبو العلا عفيفى

صديق من صنوف الأعداء

للاستاذ أمين الخولى

— ١ —

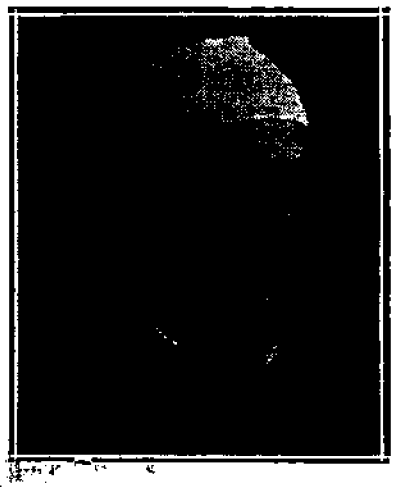

سرت القرون تترى ، والغرب يرمى الشرق بأفلاذ أكباده ، ويرصد لكيده أنفس عتاده ، ويهيج لقتله غطاريف أجناده ، والشرق صامد باسل ، صابر على هذا البلاء النازل . . . يا عجبا ! هما يتنازعان قبرا ، وإن يكن لسيد الحواريين ، وكلاهما يؤمن أنه مرفوع ، وفى السماء قار . ليس فى الأرض مرقده ، ولا بين أطباق الثرى جسده . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . حكمة الله وسنة الاجتماع لتتصل الأسباب ، وتتم النواميس ، وتنمو الحضارات ، وتتواصل المدنيات

فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهذا الأتون لما يخمد ، يؤجج الحقد أواره ، ويؤرث البغض ناره ، كانت تتدانى قلوب بهذا التباعد ، وتتعارف نفوس بالتقاطع السائد ، ويأبى الله إلا أن يكون هذا الكون خيراً شيب بشر ، وشراً حل خيراً ، وأن تكون الحرب ناراً ونوراً

— ٢ —

كان جرمانياً صليبة ، أوربياً محضاً ، غربياً صرفاً ؛ البابا وصيه وهو صغير ، والبابا مدبره وهو كبير ؛ نشأ فى حضن المسيحية ، وغذاه حب الكنيسة الكاثوليكية ، وبورك بها طفلا ، وفتى وزوجا وأباً ، كما توج بها ملكا وأيد منها ، فبسط يده أمام المذبح يقسم أن يسير إلى الشرق غازياً ، ويخلص قبر المسيح فادياً ، ويعز النصرانية فى شرقها والغرب : ذلكم فردريك الثانى هو هنشتاوفن ، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وملك صقلية - ١٢١٢ - ١٢٥٠ م -

— ٣ —

لكن الشرق الساحر ، بسنه الباهر ، ومجده الزاخر ، وعقله

القاهر ، وفنه الفاخر ، قد فتن الأنبرور على غريبته ؛ واستهواه فى أوربته ، وأصباه على جرمانيته ، فاذا العاهل شرقى فى هواه وميله ، شرقى فى علمه وفنه ، شرقى فى مزاجه وذوقه ، شرقى فى خاصته وجنده ؛ وإذا هو لا يبر للكنيسة بقسم ، ولا يفى بموعد ، . . ثم إذا هو حرب على صاحب مفاتيح الجنة ، ينتهك حرمته ، ويحقر قداسته ؛ يرفع على رأسه سيفه ، بدل أن يحنى أمامه رأسه . وإنها لمفارقة سجلها التاريخ دهشا

— ٤ —

كان ذوقه شرقيا ، فى جده ولعبه ، فى قصره وحاشيته ، فى مركبه وسلاحه ؛ يدبر ذلك من أمره أتباع شرقيون مسلمون ، قد حكى فى ذلك ماعرف الشرق من قصور الخلفاء ، حتى ما أفرد من مقاصير النساء (١) أنس إلى الفن الشرق صامته وناطقه ؛ تجرى حياته على أنماط وعادات شرقية (٢) تحرسه أجناد من بنى الشرق المسلمين (٣) يجيد العربية فيما يعرف من لغات حتى يتكلمها ويدرس بها (٤) وكم وراء ذلك من مظاهر فنية ، وولع شرقى ليس أقل من هذا شانا ولا أيسر خطراً

كان عقله شرقيا ، آثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية (٥) وعمل على اكتساب غربه من ذلك ما يصل إليه جهده ، فتح التفكير العلمى لعصره اتجاها جديداً ؛ وكان أقوى وأقدر من عرف الغرب فى حركة نقل المعارف عن الشرق فى تلك الأعصر ؛ وفى كنفه نشط مترجمون من أنحاء أوربا المختلفة ، لنقل ماحفظ الاسلام من تراث الانسانية ، وذخر المدنية

ونسى أو تناسى مابين الشرق والغرب إذ ذاك ، من حروب مشبوبة ، وعداوة مذكاة ، فراسل ملوكه فى الود ، وفى العلم ، يسألهم فتاوى الرياضة ، وفنون الحكمة ، سواء فى ذلك دانى الشرق منه ، وقاصيه عنه ؛ فكتب إلى علماء سبتة يسألهم فى شئون فلسفية ، رد عليه فيها ابن سبعين أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم الاشبيلى (٦) ، كما كتب إلى الملك الكامل بمصر فى مسائل مشكلة من الهندسة والحكمة والرياضة ، ورد عليه الشيخ علم الدين قيصر الحنفى وغيره من علماء مصر (٧) : التى كانت تلتقى مجمات الغرب ، وتلتقه أصول الحياة فى وقت واحد

(١) دائرة المعارف الايطالية الجديدة — فريدريك الثانى هوهنشتاوفن —
(٢) المصدر السابق
(٣) تراث الاسلام ج ٢ تعليقة ٢ ص ٣٣
(٤) الدائرة السابقة
(٥) الدائرة المذكورة
(٦) دائرة المعارف الاسلامية — ابن سبعين —
(٧) السلوك للمقريزى ، القسم الاول من الجزء الاول ص ٢٣٩

— ٦ —

كان شرق الوجدان ، غمره فيض الشرق الروحى ، ونزوعه الصوفى فلم يأسره تلقينه ، ولم يعقله تعميده ؛ بل كان وراء ذلك كله : دخل بيت المقدس — حفظا لناموسه — برضا الملك الكامل صلحا لجامله المسلمون بمنع الأذان ، وإذا هو يقول : والله كان غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل (١) . وإذا المسلمون يحسون تسامحه ، فيقول مؤرخهم : إنه كان دهريا ، وإنما يتلاعب بالنصرانية . وحقا قد عرفت منه الكنيسة أشد ماعرفت فى تاريخها من ثورة وانضال

— ٧ —

تلك شخصية خليقة بالدرس الفلسفى والتاريخى ، رجل أنقذ العقل إذ الجهل حالك ، والظلام قاتم ؛ وحرر الوجدان إذ العصبية طاغية باغية ؛ وعرف الاسلام وتحبب إليه إذ أنكره الغرب وقاتله جاهداً جاهلا ، وأخلص له الصداقة حتى لقبه قومه « السلطان المعمد » (٢) .

إلا أنه فضل الشرق ومثله لا يجحد ، وأنه مجد الشرق ومثله يعشق ، وأنه عرف الشرق ومثله لا يجهل

— ٨ —

أيها الشبان : تلك فتنة الشرق ، فهل فقدها فيكم ؟ ؟
أيها الشبان : تلك روحانية الشرق ، فهل خسرها بكم ؟ ؟
أيها الشبان : تلك قوة الشرق ، فهل أضلها عندكم ؟ ؟
ألا أجيبوا داعى الزمن المثوب !

أمين الخولى

(١) السلوك : الموضوع السابق ص ٢٣٧
(٢) دائرة المعارف الايطالية الجديدة — المادة السابقة

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ احمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

فى حوالى ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربى منذ نشأته إلى اليوم

فى صورة قوية تحليلية رائعة

ثمنه عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التاليف ومن سائر المكاتب